

بيت المقدس في السياسة المملوكية

د . حنان أحمد الخريسات - جامعة الطفيلة التقنية - الأردن

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على السياسة المملوكية تجاه بيت المقدس التي شهدت حالة من عدم الاستقرار عبر المراحل التاريخية وتعرضت للغزو الصليبي والمغولي ، غير أن قيام دولة المماليك وتصديها لأية تحالفات من شأنها إحداث التغيير في وضع المدينة ، كان له كبير الأثر في حمايتها من التحالفات المغولية مع الغرب الأوروبي ومن أية حملات صليبية بهدف استعادتها من جديد ، كما هدفت الدراسة إلى تسليط الضوء على السياسة الدينية تجاه بيت المقدس ، وما قدمه السلاطين المماليك من رعاية واهتمام اجتماعي وخيري إذ كانت محط رعايتهم واهتمامهم ولم يغفلوا عنها حتى في حالات عدم الاستقرار السياسي التي شهدتها الدولة في بعض الفترات .

ABSTRACT

This study aims at throwing light on the Mamlkus' political system towards (Bait Al – Maqdes) which had witnessed inconstant and unstable conditions over the historical stages particularly the Mongols and Crusaders' invasion. But the establishment of the Mamlkus' state and its efforts against any interference in its affairs could have made a great change in defending it and keeping it away from the Mongols agreements with the European West to get it back.

This study also aims at throwing light on the religious policy towards (Bait Al – Maqdes) and on what the Mamluks' Sultans provided from their social and charitable efforts as a kind of paying attention to it and because they

had never forgotten it especially in its unstable political conditions that the state had experienced many years ago.

تقديم :

أبرزت الحملات الصليبية والغزو المغولي الذي اجتاحت بلاد الشام قيام عدد من الكيانات السياسية؛ صليبية ومغولية (الدولة الأيلخانية المغولية) التي حكمت كلاً من إيران والعراق ثمانية عقود (654-736هـ/1253-1335م) ، وقد شكلت هذه الكيانات خطراً على الدولة المملوكية التي دخلت معها في علاقات أثرت على استقرار بيت المقدس .

ومما لا شك فيه أن للقدس أهمية خاصة في عقيدتنا وتاريخنا ، وبيت المقدس تشغل حيزاً كبيراً في فكرنا العربي والإسلامي ، لذا فإن السياسة المملوكية تجاه بيت المقدس انطلقت من منطلق عقدي وديني وتاريخي وحضاري للمحافظة عليها ، وبخاصة أنها تشكل مركز الصراع السياسي والديني بين القوى الطامعة ، وبعد أن فقدت الدولة الأيوبية هيبتها بغياب صلاح الدين الأيوبي ، إذ كانت نقطة المساومة والتنازل من قبل أبنائه للحفاظ على ملكهم في ظل الغزو المغولي والحملات الصليبية والتحالفات التي تمت للوصول إليها .

وقد وضعت الدراسة هدفاً أمامها أن تجيب بهذا الخصوص على

التساؤلات التالية

وهي :-

أولاً :- ما السياسة التي انتهجها المماليك تجاه بيت المقدس في ظل

القوى المعاصرة لها ؟

ثانياً :- هل كان قيام دولة المماليك ضرورة للحفاظ على بيت المقدس

وكيف تم ذلك ؟

ثالثاً :- ما مدى نجاح هذه السياسة في تحقيق أهدافها ؟

السياسة الأيوبية تجاه القوى الصليبية الطامعة في بيت المقدس .

نحج الأيوبيون تجاه بيت المقدس سياسة ذات أبعاد مختلفة في تعاملهم مع الصليبيين بعد أن تنامي هاجس دفع الخطر الصليبي عن مصر وبلاد الشام لدى صلاح الدين الأيوبي قبل قيام الدولة الأيوبية اثر مشاركته في الحملات الزنكية الثلاث التي أرسلت إلى مصر بين سنتي 559-564هـ / 1167-1168م ، ثم بعد أن أصبح هو المهيمن على إدارتها نيابة عن نور الدين محمود وعن الخليفة الفاطمي العاضد بالله 555-567هـ / 1167-1171م ثم بعد إلغاء الخلافة الفاطمية سنة 567هـ / 1171م (1) .

إن أهم دوافع الزنكيين وراء إرسال الحملات الثلاث المشار إليها إلى مصر هو الوقوف في وجه طموحات الملك عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس في مد نفوذه نحوها (2) .

كان لتزايد إرسال الحملات الصليبية إلى مصر بما عرفته من تحديات أثرها في بلورة ذهن صلاح الدين الأيوبي تجاه ما يجب عليه عمله لمواجهة هذا الخطر ومن تزايد التحركات الصليبية في المنطقة العربية ، وبخاصة بعد الفراغ السياسي الكبير الذي حصل في صفوف الزنكيين بعد وفاة نور الدين محمود ، لذا اتبع صلاح الدين سياسة الاستنهاض للأمراء بإرسال الرسائل التي تضمنت تصورا واضحا للمخاطر التي برزت نتيجة لتخاذل البيت الزنكي في الدفاع عن بعض المدن ، وتوقيع معاهدة صلح مع الصليبيين ، مما يعني تفرق الكلمة المجتمعة وانعزال مصر عن بلاد الشام ، وزيادة أطماع الصليبيين في البلاد الإسلامية (3) .

إن جمع أمر المسلمين ووحدتهم أمر تقتضيه الضرورة " بعد تكاثر أطماع العداة " (4) من الصليبيين ، على الرغم أن التحالف الزنكي كان جليا في دمشق وحصص مع الصليبيين ضد صلاح الدين الأيوبي مما أدى إلى قيام حرب استمرت ذيوها حتى سنة 582هـ / 1186م (5) .

لم يكن بإمكان صلاح الدين خلال السنوات الأثني عشر (570-582هـ / 1174-1186م) مواجهة عناصر هذا التحالف مجتمعة ، خاصة أنها تشكل طوقا يحيط به وبقواته من منطقة الجزيرة الفراتية (الموصل)، وحتى شمال بلاد

الشام (حلب) ، ثم عبر جبال لبنان (الإسماعيلية) ، وسواحل البحر المتوسط وفلسطين (الصلبيون) ، ولمواجهة هذا الوضع تبنى صلاح الدين سياسة أو خطة ذات مسارات ثلاثة وهي :

1- اعتمد سياسة الحرب تارة والمهادنة تارة أخرى مع أطراف التحالف لغرض مواجهتهم منفردين ولكي يفرغ تحالفهم من مضمونه كلما أمكنه ذلك (⁶) ، وهذا ما حصل فعلا حين عقد صلحا مع الملك عموري الأول سنة 570هـ/1177م مما وفر له مهاجمة الصليبيين في مناطق فلسطين (⁷) ، وعقد اتفاقية مع بلدوين الرابع بعد وفاة والده عموري الأول سنة 570هـ/1174م عرض صداقته عليه ، كما عقد معاهدة أخرى مع إمارة طرابلس في السنة التالية أمدتها أربع سنوات (⁸) .

في ضوء هذه الترتيبات أعد صلاح الدين الأيوبي نفسه عسكريا وعالج جوانب الضعف فبنى القلاع والأسوار وأكثر من التحصينات ووفر السلاح ، وقد رأى العلماء في هذه النظرة توفيراً للظروف الملائمة لتحرير بيت المقدس ، ثم أعلن الوحدة سنة 583هـ/1187م وأعلن التعبئة العامة في صفوف قواته والدخول في حرب مع الصليبيين ابتدأت بمعركة حطين يوم الجمعة 24 ربيع الآخر سنة 583هـ/1187م وانتهت بصلح الرملة سنة 588هـ/1192م (⁹)

بدراسة مسيرة حرب صلاح الدين الأيوبي في حربه مع الصليبيين ظهرت مجموعة من العوامل اضطرتّه إلى الدخول في مفاوضات معهم بعد مرور خمس سنوات من الحرب وهي :

1- إدراكه لمدى ضخامة القوات الصليبية المصاحبة للحملة الثالثة التي كان على رأسها ثلاثة من ملوك أوروبا (¹⁰) .

2- فشله في الحصول على إسناد عسكري إسلامي يمكنه من تحقيق تفوق على الصليبيين في الحملة المشار إليها . (¹¹)

3- تراجع قدرات الجيش الأيوبي بعد أن ظهرت في صفوفهم معالم الضجر، مما يبدو مفهوماً في أعقاب حروب طويلة دامت عقود دون توفر قوات إضافية بديلة لها (12)، إن هذه العوامل مجتمعة هي التي دفعت إلى عقد صلح الرملة .

لم يستطع صلاح الدين حسم الموقف لصالحه بشكل نهائي في إيقاف تقدم الصليبيين نحو بيت المقدس ، وتحت وطأة الظروف المحيطة به أويباً وإسلامياً فقد كان متخوفاً مما يجنئه المستقبل من متغيرات قد تتجاوز حدود هذا الصلح لغير صالح المسلمين ، إن هذا ما يفهم من حديث له مع كاتب سيرته بهاء الدين بن شداد حين أسر له بما يختلج في نفسه من مخاوف قبيل توقيع صلح الرملة حيث قال له : " أخاف أن أصالح وما ادري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة وبقية الأمراء الأيوبيين _ أي أولاده _ قد قعد في رأس تلة _ ويعني الاقطاعات التي كانت بأيديهم _ وقال لا انزل ويهلك المسلمون " (13) .

يتضح من تخوف صلاح الدين هذا أن الجبهة الأيوبية هي موضع تخوفه ، إذ لم يتوقع لو قدر غيابه عن الساحة السياسية لسبب أو لآخر أن يستطيع الأمراء الأيوبيون من أنبائه وأقربائه تجاوز مصالحهم الخاصة مما يزيد من قوة الصليبيين ، يمكنهم من الخروج عن شروط الصلح ، وشن حرب لاستعادة بيت المقدس وما كان بأيديهم قبل معركة حطين ، وهذا ما اعتبره صلاح الدين في حالة حصوله هلاكاً للمسلمين .

ويبدو أن تخوف صلاح الدين وما كان يخشى حدوثه قد حصل بعد وفاته ، إذ انغمرت الدولة الأيوبية من بعده بصراع على السلطة دام سبع سنوات 589-596هـ/1193-1199م فيما يعرف بحرب الوراثة التي انتهت بهيمنة الملك العادل أخي صلاح الدين على أطراف الصراع، ومن ثم وصوله إلى السلطنة سنة 596هـ/1299م (14) .

ليس من شك أن حرب الوراثة بما اكتنفها من أحداث أفقدت الدولة الأيوبية هيبتها وتماسكها السياسي والعسكري ، مما يعني مزيدا من التراجع والضعف في مسيرتها تجاه الصليبيين الذين كانوا يحتفظون ببعض المدن مثل صور، وحيفا ،وعكا، ويافا⁽¹⁵⁾ ، قياسا على ما كانت عليه في عهد صلاح الدين الأيوبي، وهؤلاء كان طموحهم موضع رعاية البابوية حيث وجه لهم البابا أنوسنت الثالث سنة 589هـ/1193م أي عقب وفاة صلاح الدين يطلب منهم إعلامه بدقائق موقفهم في بلاد الشام لكي يتخذ الإجراءات التي تساعدهم على إعادة بيت المقدس إلى ما كانت عليه من قبل .⁽¹⁶⁾

في ضوء ذلك تحورت السياسة الأيوبية تجاه القوى الصليبية بعد وفاة صلاح الدين أن يظل واقع الصليبيين بالصيغة التي حددها صلح الرملة سنة 588هـ/1192م ثم معاهدة سنة 601هـ/1204م ، ثم التصدي لأية محاولة من قبل صليبي المشرق أو مسانديهم في الغرب الأوروبي إذا ما شنوا حملات لتغيير هذا الواقع ، غير أن هذه السياسة أخذت أبعادا أخرى في عهد الملك الكامل بن العادل ومن أعقبه من سلاطين الدولة الأيوبية فقد تجاوزت مضمون صلح الرملة ، واتفاقية سنة 494هـ/1198م ، إلى أسس تناقض السياسة التي قامت على أسسها الدولة الأيوبية ونعني بذلك طرح فكرة إعادة مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه قبل معركة حطين .

نتيجة للخلاف الذي وقع بين الملك الكامل ، والمعظم ، والأشرف بعد وفاة والدهم الملك العادل ، انتهزت أوروبا هذا الخلاف محاولة الاستفادة منه فساهمت في تعميقه حتى صار كل منهم يستنجد بما ليضمن حماية أملاكه ، فقد تحالف الملك المعظم مع الخوارزمية ، والملك الكامل تحالف مع فريدريك ؛ الإمبراطور الألماني ضد أخيه الملك المعظم مقابل منحه بيت المقدس .

إن هذا الطرح الذي تم عرضه على الصليبيين في عهد الملك الكامل الأيوبي حين سلم بيت المقدس إلى الإمبراطور فريدريك إمبراطور ألمانيا سنة 626هـ/1229م ، وفي عهد ابنه الصالح نجم الدين أيوب يعكس سياسة تبنت

الحفاظ على توازن سياسي وعسكري مع الصليبيين حتى ولو كان ذلك على حساب التنازل عن جميع الأراضي التي سبق أن استنقدها صلاح الدين في أعقاب معركة حطين .

ب وفاة الملك الكامل محمد سنة 635هـ/1238م اخذ الصليبيون يعززون وجودهم في القدس ، فقرر الملك الناصر داود ملك الكرك استعادة القدس فتم تحريرها بعد حصار دام سبعة وعشرين يوما سنة 637هـ/1239م ، غير أن القدس لم تنعم بالاستقرار بعد هذا الفتح فما لبثت أن عادت إلى الصليبيين سنة 641هـ/1243م ثم استعادها الخوارزمية سنة 642هـ/1244م (17).

من خلال ما ذكر آنفا كان تفكك الدولة الأيوبية بعد غياب صلاح الدين الأيوبي عاملا من عوامل عدم الاستقرار في مدينة بيت المقدس ، كما أن الصراع الإسلامي الصليبي ، والصراع الأيوبي كان له أثره السلبي على استقرار الحياة فيها.

السياسة المملوكية تجاه القوى الطامعة في بيت المقدس

أولا : السياسة المملوكية تجاه الصليبيين :

كان قيام دولة المماليك سنة 648هـ/1250م إيذانا بدخول مدينة القدس مرحلة جديدة من تاريخها ، ويجب أن لا ننسى أن المماليك كان لهم الدور الفاعل في محاربة الصليبيين في عهد السلطان نجم الدين أيوب عند وصول ملك فرنسا لويس التاسع إلى مشارف مدينة دمياط سنة 647هـ/1249م في خطة للوصول إلى بيت المقدس .

عمل المماليك ضمن خطة دفاعية وهجومية في أن واحد مع الصالح نجم الدين أيوب بقيادة الأمير بيبرس البندقداري الصالح (18) ، وكان لهذه الخطوة أثرها في تشجيع المماليك على شن الغارات المتعاقبة على الصليبيين واسر الكثير منهم (19) ، كما أن السلطنة شجر الدر تولت قيادة المقاومة والدفاع عن مصر وأدارت المعركة إلى حين وصول السلطان الجديد المعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب ، وتمخض ذلك عن الضغط على الحملة الصليبية فتح باب

التفاوض مع الملك لويس التاسع اشترط الملك المعظم تورانشاه إعادة بيت المقدس ، وفتح ساحل قيسارية وعسقلان ، على أن يكون بهما ولاية من المسلمين ⁽²⁰⁾ ، وأمام الرفض الصليبي لهذه الشروط وبدعوى سيطرة فكرة عامة على الغرب الأوروبي وهي انه ما دامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس ، فان المشاريع الصليبية في الشام فاشلة لا محالة لذا لا بد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة ، والتي جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق هدفه في حملته السابعة حين حدثته نفسه بأن يستعيد بيت المقدس وعلم أن ذلك لن يتم إلا بملك الديار المصرية.

غير انه لم يحقق من ذلك شيئا حيث استمرت قوات المماليك بملاحقة الجيش الصليبي ونجحت مع الأيوبيين بإنزال هزيمة ساحقة بهم في موقعة فارسكور ووقع الملك لويس التاسع نفسه في الأسر. ⁽²¹⁾

ظل باب المفاوضات مفتوحا بوفاة الملك المعظم تورانشاه إلى أن تسلمت زمام السلطة شجر الدر، والتي رأت أن من المصلحة عقد هدنة مع الصليبيين بإطلاق سراح الملك لويس مقابل فدية يدفعها، وانتهى الأمر إلى عقد صلح أمده عشر سنوات لم يذكر فيه أية بنود تتعلق بمدينة القدس مركز الصراع . ومن الغرابة بمكان أن تتجاهل شجر الدر موضوع القدس دون أن تستفيد من موقف الصليبيين الضعيف مكتفية بالتركيز على مدينة دمياط ، كما أن أمور الدولة لم تكن مستقرة بسبب النزاع مع الملك الناصر الأيوبي واحتلاله دمشق مما دفعها إلى تقوية مواجهتها للملك الناصر بزواجها من الأمير عز الدين أيبك ثم تنازلها عن الحكم له سنة 648هـ/1250م إيذانا بانتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك . ⁽²²⁾

بقيت القدس ميدانا للصراع بين المسلمين والصليبيين ، وبين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، حيث دخلت في دائرة الصراع ممثلة بالملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، وبين المماليك بزعامة السلطان المعز أيبك ، ونتج عن هذا الصراع أن كلا منهما لجأ إلى التحالف مع الصليبيين والاستنجاد بهم ضد

الآخر مقابل التنازل عن بيت المقدس ، ومال الصليبيون إلى التحالف مع عز الدين أيك ضد الملك الناصر⁽²³⁾ .

في ظل هذا الصراع أرسل الملك لويس التاسع رسالة إلى المماليك يطلب فيها إطلاق أسرى الصليبيين المحجوزين لديهم ، وانه لن يتحالف مع الناصر صاحب دمشق إلا إذا أرسل له أمراء المماليك برؤوس القتلى الصليبيين الذين علقوا على أسوار القاهرة ، فوصلت موافقة المماليك له سنة 650هـ/1252م وبأنهم سوف يسلمون له بيت المقدس ، كما أن المعز أيك أرسل إلى الملك لويس انه سوف يسلمه بيت المقدس بمجرد الاستيلاء عليه من الملك الناصر يوسف ، غير أن تدخل الخليفة المستعصم العباسي أنقذ الموقف بالصلح بينهما تحسبا للزحف المغولي القادم على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس أما الشام تبقى للملك الناصر يوسف⁽²⁴⁾ .

لم تخضع بيت المقدس للمماليك طويلا ، فقد تنازل المعز أيك عنها بعد ثلاث سنوات للملك الناصر يوسف ، وقد ظلت تحت حكمه بين سنتي 654-658هـ/1256-1260م بيد الملك الناصر أي حتى الاجتياح المغولي لبلاد الشام ،⁽²⁵⁾ ولم يسفر التحالف المملوكي الصليبي عن نتائج تذكر .

لم يدخل الصليبيون في أية مواجهات مع المماليك إبان الاجتياح المغولي لبلاد الشام ، لان أوضاعهم لم تكن تسمح لهم بالتحالف أو الحرب مع المماليك أو المغول ، لذا فقد وقفوا على الحياد وكان انتصار المماليك في عين جالوت سنة 658هـ/1260م نهاية لطموحات الصليبيين في الوصول إلى بيت المقدس .

بدأت هجمات الظاهر بيبرس ضد الصليبيين في بلاد الشام سنة 659هـ/1261م عندما قدموا الدعم للغزو المغولي وخص بحجومه هيثوم ملك أرمينيا الصغرى ، وبوهيموند السادس أمير أنطاكية⁽²⁶⁾ ، وظلت المدن الصليبية عرضة لغارات المماليك .

تمكن المماليك من تطهير بلاد الشام من الصليبيين بين سنتي 659-660هـ/1261-1262م ، واهتموا باتخاذ الاستعدادات اللازمة لأي تحرك صليبي محتمل ضدهم حيث بنى الظاهر بيبرس أبراجا للمراقبة في المناطق الحدودية مع الصليبيين ، وحدد القلاع الملاصقة للمغول في البيرة سنة 663هـ/1264م ، وزودها بالعتاد ، كما أمر بردم مصب النيل عند ثغر دمياط لمنع الصليبيين من إرسال حملات أخرى للوصول إلى بيت المقدس ⁽²⁷⁾ ، واستأنف حملاته على المعقل الصليبية في السنوات 663هـ/1264م ، 664هـ/1265م ، 665هـ/1266م ، 666هـ/1267م ، وتمكن من إسقاط إمارة أنطاكية التي كانت السند الأقوى للصليبيين ، ومثل سقوطها انخيارا للمملكة الصليبية التي أقاموها في بلاد الشام والقدس بشكل خاص ⁽²⁸⁾.

وفي علاقاته الخارجية لحماية بيت المقدس ، أرسل الظاهر رسالة إلى ملك الحفصيين سنة 669هـ/1270م يخبره فيها بإرسال نجدة للتصدي للحملة القادمة إلى تونس بقيادة لويس التاسع ، غير أن فشل الحملة في الوصول أوقفت استعدادات كل منهما ⁽²⁹⁾.

أما السلطان قلاوون فقد تصدى للصليبيين وعقد معهم الاتفاقيات ، إلا انه لجأ إلى تصفية الوجود الصليبي بفتح الإمارات الصليبية المتبقية بسبب نقضهم للاتفاقيات المنعقدة ، فاسقط إمارة طرابلس سنة 688هـ/1289م ⁽³⁰⁾ ، وسار السلطان الأشرف خليل على نهج أبيه فنفذ وصية والده وصية والده بفتح إمارة عكا سنة 690هـ/1291م .

بعد سقوط أهم الإمارات الصليبية في طرابلس وعكا ⁽³¹⁾ ، استمرت السياسة المملوكية بتصفية الوجود الصليبي حيث أرسل الناصر محمد حملة عسكرية سنة 702هـ/1302م قضى فيها على البقية الباقية من معقل الصليبيين في جزيرة أرواد ورودس سنة 706هـ/1306م ⁽³²⁾

نظرا لفشل المحاولات العسكرية لاستعادة بيت المقدس من المماليك حاول الملك فيليب السادس ملك فرنسا إرسال سفارة إلى السلطان المملوكي

الناصر محمد سنة 730هـ/1329م طالبا منه تسليم بيت المقدس والساحل إليه ، فرد الملك الناصر عليه بإهانة رجال السفارة وطردهم⁽³³⁾ .

وطد الناصر محمد علاقاته مع الغرب الأوروبي ممثلة بجيمس الثاني ملك أراغون حيث تبادل الطرفان الرسائل في الفترة ما بين 699-728هـ/1300-1328م تمحورت حول امتيازات تجارية لمملكة أراغون في بلاد الشام ، وتسهيل سبل الحجاج الأراغونيين إلى بيت المقدس وإعادة فتح بعض الكنائس لهم ، كما حرصت فرنسا على التودد إلى الناصر محمد لاستعادة نفوذها في بيت المقدس⁽³⁴⁾ .

على الرغم من التسهيلات التي قدمها السلطان الناصر محمد للغرب الأوروبي ، إلا أن البابا يوحنا الثاني والعشرين جدد سنة 736هـ/1335م إحياء مشروع الحملات الصليبية إلى الشرق بقيادة فيليب السادس ملك فرنسا على أن يكون هدفها مصر أولا، غير أن المشروع لاقى الفشل بسبب وفاة البابا يوحنا⁽³⁵⁾ ، مما يشير إلى أن الغرب الأوروبي والصليبيين في الشرق ممن طردوا عسكريا من بيت المقدس ظلوا يحاولون العودة إلى بيت المقدس للحصول على امتيازات دينية وتجارية لامتلاك حقوق رعاية المسيحيين ثم الوصول إليه .

شكلت الفترة الواقعة بين وفاة الناصر محمد سنة 741هـ/1340م وبين سقوط الدولة المملوكية سنة 784هـ/1382م حالة من عدم الاستقرار الداخلي استغلها الأوروبيون فأرسلوا حملة صليبية سنة 760هـ/1359م للوصول إلى بيت المقدس بقيادة ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان (1362-1365م)⁽³⁶⁾ ، وقد اختار بطرس الأول مدينة الإسكندرية قاعدة للحملة لتكون بعد وصولها نقطة الانطلاق للوصول إلى بيت المقدس بالاستيلاء على ثغر دمياط ، وحمل بالسلطان المملوكي على التنازل عن بيت المقدس مقابل استرداد الثغر ، غير أن الحملة لم تبق في الإسكندرية أكثر من أسبوع للوصول الناصر محمد على رأس الجيش المملوكي وطردهم منها.

كانت هذه الحملة آخر الحملات الصليبية العسكرية لمحاولة العودة إلى بيت المقدس .

ثانيا : السياسة المملوكية تجاه المغول الأيلخانيين :

شكل الخطر المغولي مصدر قلق لدولة المماليك حين اجتاحتها بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب 657-658هـ / 1259-1260م مما دفع بهم لان يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة هذا الخطر والتصدي له في ظل أطماع دولة المغول الأيلخانيين التي أقامت تحالفات للوصول إلى مصر ثم تطورت إلى استرجاع بيت المقدس وإعادةه إلى الصليبيين طوال فترة حكم أيلخاناتها .

كانت الدولة المملوكية المسيطرة على سواحل البحر المتوسط تقف عائقا أمام تقدم الجيوش المغولية في عهد هولاكو الذي انصب اهتمامه بشكل جوهري، على توفير أمن الدولة التي أنشأها ، بما يحقق لها القدرة على البقاء والحفاظ على الأراضي التي فرضت هيمنتها عليها في العراق و بلاد الشام ، ويمكنها من تنفيذ أوامر الخاقان منكوقان بخصوص إخضاع مصر .

إن تحقيق الأمن في دولة حديثة النشأة ، والتخطيط لإخضاع مصر ، اقتضى سياسة خارجية فاعلة تتناسب مع طموح هولاكو وخلفائه من بعده ، ونعني بذلك زحفهم إلى مصر غير أن اصطدامهم بالجيش المملوكي في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م⁽³⁷⁾ ، وتسجيل أول انتصار مملوكي على المغول الأيلخانيين دفعهم إلى الانسحاب من بلاد الشام والعودة إلى العراق⁽³⁸⁾ .

تجاه المتغيرات التي نجمت عن بروز القوة المملوكية وامتداد حكم المماليك ليشمل بلاد الشام التي أصبحت جزءا من دولتهم ، والهزيمة التي لحقت بالمغول كان عليهم أي المغول أن يرسموا سياسة جديدة لمواجهة المماليك الذين يشكلون القوة الأكبر في بلاد الشام .

بدأ التهديد الحقيقي للدولة المملوكية يتضح بتحمل السلطان قطز للعبء الذي وقع على كاهله وعلى دولته الفتية أثر اجتياح المغول لبلاد الشام

حيث " لم يبق من يدفعهم عن العباد والبلاد إلا عسكر الديار المصرية " (39) لذا فقد عمل على ترسيخ استعداداته لمواجهة خطرهم .

لم تفلح محاولة هولاكو الأولى مع المماليك في إرهابهم سواء كان ذلك من خلال تحركاته أو دبلوماسيته في الخطابات التي أرسلها إلى المماليك، وجاءت ردود الفعل لدى السلطان قطز على غير ما توقعه الزعيم المغولي حين رد عليه بقتل رسله (40) ، إذ يذكر بيبرس المنصوري أن قطز " أمر... بقتلهم ، فقتلوا وطوفت رؤوسهم الأسواق " (41) .

لجأ السلطان قطز إلى هذا الإجراء رداً على أسلوب التهيب والوعيد الذي اتبعه هولاكو في سياسته تجاه المماليك كما هو واضح في رسالتيه المكتوبة ، والشفوية إلى السلطان المظفر قطز سنة 658هـ/1260م ، يذكره بما فتح من بلاد أصبحت تحت سيطرته ويدعوه إلى " بذل الطاعة وتعبئة الضيافة " (42) ، وإلى أن يعلن التبعية ويسارع إلى " حمل الفدية وقبول شحنة في بلاده " (43) ، مما يعني أنه كان ينوي إخضاع البلاد الواقعة تحت سيطرة المماليك ، وقد تضمنت رسالة هولاكو معاني الازدراء به بقوله له : " يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بإنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه " (44) ، كما خاطبه مهدداً " ... أن سلموا إلينا الأمر تسلموا قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا " ، " فان انتم لشرطنا أطعتم ، وما قلنا سمعتم فلکم مالنا وعليکم ما علينا ، وان انتم خالفتموننا هلكتم فلا تهلكوا أنفسکم بأيديهم .. فما بقي لنا مقصد سواکم " (45) .

ومع أن هولاكو غادر الشام بعيد إرسال رسالته هذه ، فقد تولى المهمة بعده وبتكليف منه القائد المغولي كتيغا نوين ، الذي فوجئ بأخبار تحرک الجيش المصري نحو بلاد الشام لمواجهة ، فتوجه هو الآخر بقواته نحوه وهو ما تمخض عن المعركة الشهيرة والحاسمة ؛ معركة عين جالوت في يوم الجمعة الخامس

والعشرين من شهر رمضان سنة 658هـ/1260م حيث حقق المماليك انتصاراً ساحقاً على المغول وتمكنوا من قتل قائدهم المشار إليه⁽⁴⁶⁾.

شكل هذا النصر فشلاً ذريعاً للسياسة التي اتبعها هولاكو في مرحلة ما بعد احتلال العراق، إذ لم يتمكن من تنفيذ أحلامه باحتلال مصر، كما أنه أجبر على الخروج من بلاد الشام بعد احتلال دام بضعة أشهر من رمضان سنة 657هـ/1259م /الخامس والعشرين من رمضان سنة 658هـ/1260م)، إضافة إلى أن تراجع المغول إلى قواعدهم في العراق وإيران، أدى إلى إضعاف قدرتهم على الاتصال بملفائهم من الصليبيين⁽⁴⁷⁾.

أصبح المماليك يشكلون خطراً على سياسة المغول التوسعية ودفعت هذه المتغيرات بهم إلى التراجع والتفكير برسم سياسة جديدة لمواجهة الوضع الجديد وهو ما يلاحظ في أكثر من اتجاه:

1 - تحول المغول الأيلخانيون عن سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع، وأصبح مهمهم الأول بعد خروجهم من بلاد الشام الاحتفاظ بنهر الفرات حداً طبيعياً يفصلهم عن المماليك القوة المسيطرة.

2 - حولوا العراق إلى ترسانة عسكرية، و بدأوا يتحينون الفرصة لرد الاعتبار لجيشهم ومقتل قائده كتبغا، وقد وجدوا في مقتل السلطان المملوكي المظفر قطز، وحصول انقسامات بين صفوف المماليك، فرصة لإرسال حملة عسكرية إلى بلاد الشام سنة 659هـ/1261م⁽⁴⁸⁾، استولت على حلب وحماة ودمشق⁽⁴⁹⁾، ولكنهم ردوا على أعقابهم، ثم تحالفوا مع أرمنية الصغرى وسلاجقة الروم، وشنوا هجوماً مشتركاً سنة 662هـ/1213م، هاجموا فيه مدينتي عينتاب والبيرة⁽⁵⁰⁾ ولكن المماليك الحقوا بهم في السنة التالية في منطقة المحروسة⁽⁵¹⁾ خسائر كبيرة⁽⁵²⁾.

كما نجح المماليك في القبض على بعض أمراءهم ممن حاول هولاكو استمالتهم ضد الدولة المملوكية سنة 662هـ/1264م⁽⁵³⁾ كالأمير فارس الدين أقطاي⁽⁵⁴⁾.

في ضوء فشل هولاكو في تحقيق أهدافه بالتغلغل إلى بلاد الشام والوصول إلى مصر ، والقضاء على المماليك ، نهجت الدولة المغولية في عهده إلى الانفتاح على قوى الغرب الأوروبي واستقبال ممثلين عنها ، كما أن هذه القوى كانت متحمسة هي الأخرى للتحالف مع المغول بهدف القيام بعمل عسكري مشترك لاجتياح بلاد الشام واسترجاع بيت المقدس من المسلمين ، غير أن فشلها في الوصول إلى صيغة عملية مع المغول لتنفيذ أهدافها جعلها تتردد في جدوى مواصلة سعيها هذا، وجاء نجاح هولاكو؛ مؤسس الدولة الأيلخانية في السيطرة على العراق وإسقاط الخلافة العباسية سنة 656هـ / 1258م لينعش هذه الآمال .

شعر الغربيون أن أمالهم يمكن أن تتحقق وبخاصة بعد أن امتدت حدود الدولة الأيلخانية حتى حدود نهر الفرات .

تبع سقوط بغداد سنة 656هـ / 1258م قيام هولاكو باتصالات مع قوى الغرب الأوروبي ⁽⁵⁵⁾ ، و بدأ ذلك بمبادرة من البابا أوربان الرابع (URBAN IV) (660 – 663هـ / 1261 – 1264م) برسالة تضمنت دعوة هولاكو إلى اعتناق المسيحية وتمكينه من الوصول إلى بيت المقدس مؤكداً على سرعة التعميد ⁽⁵⁶⁾ ، كما تردد إلى بلاطه ابتداءً بسنة 658هـ / 1259م وما بعدها ، رسل عدد من الباباوات وهم :

- 1 - البابا الكسندر الرابع (652 – 660هـ / 1254 – 1261م) . ⁽⁵⁷⁾
- 2 - البابا أوربان الرابع (Urban IV) (660 – 663هـ / 1261 – 1264م) ⁽⁵⁸⁾
- 3 - البابا بونيفاس وقد أرسل رسالته إلى هولاكو سنة 659هـ / 1260م ⁽⁵⁹⁾

وقد ركز معظمهم على دعوة هولاكو لاعتناق المسيحية وجاء في رسالة لأحدهم انه فرح بما سمعه من انه اعتنقها فعلاً .

أما رسائل هولاكو إلى الغرب الأوروبي فقد أظهرت دراسة حديثة أنها مفقودة (⁶⁰) ، إلا أن ثمة معلومات مقتضبة وصلت عنها ، ومنها انه أرسل بعثة إلى البابا أوربان الرابع (*Urban IV*) (660 - 663 هـ / 1261 - 1264 م) ورسالة حملها رسله إليه .

ومع أن تفاصيل هذه الرسالة غير معروفة (⁶¹) ، إلا أن تقريراً مغولياً ، يفيد بان هدفها الأساس كان يركز على دعوة هولاكو إلى عقد تحالف دائم ليس مع البابوية وحدها ، بل مع ملوك وأمراء الغرب جميعاً للوصول إلى بيت المقدس، يدلل على ذلك تقرير مغولي تقدم به الأيلخان الذي حل محل هولاكو في الحكم وهو ابنه أباقا ، أرسله إلى المؤتمر الديني في فرنسا والذي عقد سنة 673 هـ / 1273 م ، حيث جاء فيه أن " ...الملك هيلي [أي هولاكو] هو الذي بعث بأفضل ما عنده من مبعوثين إلى السيد البابا قدس الله سره ، كما بعث بهم إلى جميع الملوك والأمراء بهدف الوصول إلى تحالف دائم معهم ، واصل واحد من بين هؤلاء السفراء هو أنا ريخالدوس كاتب العدل عند الملك العظيم والمترجم الخاص للغة اللاتينية له وقد اعترض طريقنا نحن المبعوثين السيد مانفريد ملك صقلية ، وهو ابن الإمبراطور السابق فريدريك الثاني ، ومنع مواصلتنا للسفر ، وأجبرنا بالقوة على الرجوع " (⁶²) . غير أن رد البابا تضمن الطلب السابق في سرعة اعتناق المسيحية (⁶³) .

ويذكر عادل هلال أن كتب هولاكو إلى الغرب مفقودة سوى رسالة غير محددة التاريخ ، يبدي فيها البابا سعادته لما سمعه من الرسول من رغبة هولاكو في اعتناق المسيحية ، ومما أرسله البابا إلى هولاكو انه : سيري كيف ستزيد قوتك في حرك مع المسلمين لو أن الجنود المسيحيين يساعدونك علانية وبكل قوتهم بفضل معونة الرب ومن ثم فانك ستزيد قوتك في الدنيا وبالتأكيد سوف تضمن المجد الخالد في الآخرة.. " (⁶⁴)

(. لم يتمكن هولاءكو من الرد على رسالة البابا بسبب وفاته سنة 663هـ / 1264م .

يتضح مما سبق أن سياسة هولاءكو تجاه الغرب الأوروبي كانت تعتمد إقامة تحالف معه للحصول على دعم بإرسال حملة إلى الأراضي المقدسة، وأنه كان مندفعاً في هذا الاتجاه ، بيد أن الصورة عن تفاصيل ما جرى بين الطرفين حول ذلك تبقى غامضة بانتظار اكتشاف ما قد يجعل الصورة أكثر وضوحاً. وجاءت وفاته سنة 663هـ / 1264م لتتقل هذه المهمة لمن أعقبه من الأيلخانات .

ظل الخطر الملوكي يشكل قوة ضاغطة أمام الأطماع المغولية ومع اعتلاء أباقا خان عرش الأيلخانية المغولية سنة 664هـ / 1265م ، أولى اهتمامه باستمرار سياسة المغول في السيطرة على البلاد ، وفي نطاق هذه السياسة وجه إخوته لحفظ حدود المناطق الواقعة ضمن الأيلخانية الفارسية حتى ضفاف نهر جيحون وبلاد الروم وديار بكر وحدود الشام لتأمين حدوده من خطر المماليك (65) .

تميزت السياسة المملوكية تجاه أباقا خان برفض سياسة التهديد والوعيد التي يتبعها وهذا ما ظهر فيما تضمنته الرسائل المبعوثة من قبل أباقا إلى الظاهر بيبرس ، كما رفض الظاهر أسلوب المساومة الذي عبرت عنه الرسائل ، وحمل رسله جواباً شفوياً للأيلخان يقول : " اعلموه إنني وراءه بالمطالبة ولا أزال حتى انتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض. " (66) ، كما حملهم جواباً مكتوباً يهدد فيه بإعادة ما جرى عليهم في معركة عين جالوت (67) ، وكانت رسائل الأيلخان أباقا إلى المماليك سنة 667هـ / 1268م، قد تضمنت شروطاً ظاهراً طلب إقامة صلح معهم ، و باطنها مليء بالتهديد والوعيد ونعني بذلك الرسالة المكتوبة التي بعث بها إلى السلطان الظاهر بيبرس ، أظهر فيها رغبته في إقامة الصلح، وعدم اخذ ذنب الأب بذنب الابن (68)، أما رسالته الشفوية ، جاء فيها قوله : " .. أنت مملوك

بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض ؟ واعلم انك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا .." (69) ، ويبدو أن أباقا خان الذي تعرضت قواته إلى ضربات مملوكية بين سنتي 671 . 672 هـ / 1272-1273م أدرك مدى حاجته إلى إقامة صلح مع المماليك ولكن محاولته فشلت بسبب ما فرضه من شروط أغضبت السلطان الظاهر بيبرس فأعاد الرسل دون أن يتحقق شيء (70) .

في ظل رفض المماليك إقامة صلح مع المغول يقول ابن شاکر الكتبي (ت664هـ / 1265م) : أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس توجه إليهم " فقتل منهم مقتلة عظيمة " (71) كما لجأ إلى إرسال حملة أخرى سنة 668هـ / 1269م ، إلى بلاد الشام نجحت في الوصول إلى حلب (72) وكان ذلك بعد أن بادر أباقا بإرسال أولى حملاته في أوائل سنة 664هـ / 1265م إلى البيرة (73) ، وفي ضوء تحقيق أهدافه سعى أباقا خان للحصول على مساعدة فرنج الساحل في هجوم على حلب سنة 668هـ / 1269م .

ويقول حسين عطية أن السلطان الظاهر بيبرس نجح في إقامة تحالفات مع بركة خان القبيلة الذهبية ، وعز الدين كيكائوس حاكم سلاجقة الروم ، لعزل فرنج الساحل عن تقدم أي عون للمغول في معظم الأحوال ، لذا لم يكن للحلفاء دور فاعل في دعم الحملات على المستوى العسكري (74) ، وحرص على إقامة تحالفات مع الصليبيين في الغرب سنة 672هـ / 1273م ، بإرسال كتاب إلى ادوارد الأول ملك إنجلترا لإرسال حملة صليبية إلى الشرق لاستعادة بيت المقدس ، إلا أنه لم يلمس تعاوناً لتعلق أمر إرسال الحملة بالبابا (75) .

من الواضح أن الأوضاع اتصفت بالهدوء في دولة المماليك بدليل أن النشاط العسكري للدولة الأيلخانية في الفترة التي أعقبت وفاة أباقا خان سنة 680هـ / 1281م حتى سنة 695هـ / 1295م ، قد توقف بسبب الخلافات الداخلية والنزاع على عرش الأيلخانية ، مما ساهم في قتل ثلاثة من أيلخاناتها ، إذ

بعد إقصاء كيخاتو عن العرش في آذار سنة 695هـ/1295م وقتله وصل بايدو إلى السلطة ولم يصمد طويلاً فانسحب عن الحكم في تشرين الثاني من السنة نفسها لكي يتولى عرش الأيلخانية بعده الأيلخان محمود غازان.⁽⁷⁶⁾ ، خلال هذه الفترة لم تخرج القدس عن سلطة المماليك إلا فترة قصيرة تقارب ثلاثة أشهر ونصف ، في أواخر ربيع الثاني وحتى أواسط رجب سنة 699هـ/أواخر كانون الثاني وحتى أواسط نيسان سنة 1300م عندما غزا المغول بلاد الشام بقيادة الأيلخان غازان محمود واستولوا على دمشق ، وزحفوا على فلسطين وسيطروا على القدس باستثناء ما كان للصليبيين حيث عاثوا في هذه المناطق فساداً وخاصة في مدينة القدس ، وقد أورد القلقشندي نص رسالة بعث بها السلطان المملوكي الناصر إلى الأيلخان غازان يستنكر فيها أفعاله في بيت المقدس قائلاً : " .. وأما قول الملك انه ومن معه اعتقدوا الإسلام قولاً وفعلاً دنية .. وليس هذا هو فعل المسلمين ولا من هو متمسك بهذا الدين ، وحرّم البت المقدس تشرب فيه الخمر ، وتهتك الستور ، وتفتض البكور ، ويقتل فيه المجاورون ويستأسر خطباؤه والمؤذنون " ⁽⁷⁷⁾ مع تولي الأيلخان أرغون عرش الأيلخانية ، عادت الدولة إلى سياستها التقليدية تجاه المماليك أي أنها سلكت ذات السلوك الذي أرسى قواعده هولاكو ، حيث حول الأيلخان الجديد وجهته نحو الغرب الأوروبي مشجعاً على التحالف معهم وإرسال حملة مشتركة للقضاء على المماليك والوصول إلى بيت المقدس.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه التحالفات لم تسفر عن أية خطوة عملية في عهد الأيلخان أرغون .

لمست دولة المماليك تحولا مهما في سياسة المغول تجاههم بتولي الأيلخان اولجايتو خدابنده ، حين بادر فور اعتلائه العرش بعد وفاة الأيلخان غازان سنة 703هـ/1303م بإتباع سياسة جديدة عمن سبقه ، فقد أرسل سفارة تحمل رسالة إلى السلطان الناصر محمد يؤكد فيها حرصه على توثيق روابط الصداقة ⁽⁷⁸⁾ ، بعقد صلح لإخماد الفتن بين الجانبين ⁽⁷⁹⁾ ، رغم انه أرسل

سفرائه سنة 704 هـ/1304م في الوقت ذاته إلى أوروبا يشجعهم على غزو المماليك ويعددهم بالإمدادات للوصول إلى القدس⁽⁸⁰⁾ .

استمر المماليك في الحرب مع المغول الأيلخانيين إلى أن تم طردهم عن القدس وبلاد الشام سنة 699 هـ/1300م . وأعادوا وحدة مصر وبلاد الشام من جديد .

سياسة المماليك الدينية تجاه بيت المقدس.

لم يقتصر اهتمام المماليك في بيت المقدس على الجانب السياسي بحمايتها من الغزو الخارجي ، وإنما نهجوا سياسة أخرى أبرزت اهتمامهم بالجانب الديني للمدينة باعتبارها أحد أبرز الأماكن المقدسة لدى المسلمين ، وترجم السلاطين هذا الاهتمام من خلال العمارة في بيت المقدس والعناية بالمؤسسات الدينية والاجتماعية والخيرية وقيام السلاطين بزيارات تفقدية لبيت المقدس والجدول التالي يبين جوانب هذا الاهتمام .

اسم السلطان	مظاهر الاهتمام	المصدر
1-الظاهر بيبرس	*عمر قبة الصخرة سنة 616 هـ وعمر قبة موسى ، وزار المدينة سنة 668 هـ وعمر خانة ، وجدد قبة السلسلة ، ورمم شعث الصخرة وبنى على باب عبيدة بن الجراح مشهدا . * وأمر بارتجاع عدة ضياع من أوقاف الخليل عليه السلام كانت قد دخلت في الإقطاع وعوض الأمراء عنها ، وانشأ دار الحديث بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة	المقريزي، السلوك، 1، ق3، ص491 ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق: فاطمة صديق، اكسفورد 1956، ص89 عارف العارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف، 1961، ص87
2-المنصور قلاوون	*انشأ الرباط المنصوري بباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى ، وعمر سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة	علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي ، ص27
3-السلطان برقوق	*انشأ المدرسة الغزية قرب باب الأسباط ، عمارة بركة السلطان بظاهر القدس من جهة الغرب	عارف العارف ، تاريخ القدس، ص96
4-الناصر فرج	*زار بيت المقدس والخليل	علي السيد علي، القدس في

بن برقوق	وعلق بالمسجد الستائر الحريرية على الأضرحة	العصر المملوكي ، ص28
15-الأشراف برسباني	*عمرت الأوقاف بالقدس الشريف واشترت عدة جهات للووقف من القرى برسم المسجد الأقصى والصخرة الشريفة وأصلحت قبة الصخرة وتم في عهده إنشاء المدرسة الباسطية شمال الحرم والمدرسة القادرية بين باب حطة من الغرب والمدرسة الحسينية بباب الناظر غربي الحرم .	مجبر الدين الحنبلي ، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، المطبعة الوهبية بالقاهرة 1283 هـ ، ج2 ص438 عارف العارف، تاريخ القدس ، ص96
6-الظاهر	*رسم أن تكون جوالى الذمة بالقدس والخليل وبيت لحم ورصده لعمارة بركة في الخليل	المقرزي، السلوك، 1، ق3، ص713
7-العادل كتبغا	*جدد فصوص الصخرة الشريفة، ووجد عمارة السور الشرقي المطل على مقبرة باب الرحمة	علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي، ص29
8-المنصور لاجين	جدد عمارة محراب داود بالسور القبلي عند مهد عيسى بالأقصى	عارف العارف، تاريخ القدس ، ص229
9-الناصر محمد بن قلاوون	*إنشاء رباط بالقدس وحمامين ، وعمارة السور القبلي عند محراب داود ، ورخم صدر المسجد الأقصى ، ومسجد الخليل عليه السلام، ووجد تذهيب القبتين في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وعمر القناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة .	ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج9 ، ص29
10-الأشرف شعبان بن حسين	*عمر المغارة التي عند باب الأسباط ، ووجد الأبواب الخشبية المركبة على بوابات المسجد الأقصى ، جددت القناطر على الدرجة الغربية في صحن الصخرة مقابل لباب الناظر ، ووجد مغارة عند باب الأسباط ، وأنشأ بعض الأروقة في الحرم من جهة الشمال.	عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص300

11-الظاهر جقمق	*عمارة دكة المؤذنين	عاف العارف ، تاريخ القدس ، ص300
12-الأشرف أينال	*عمارة المسجد الأقصى الشريف، إنشاء سبيل قايتباي	المرجع نفسه ، ص98
13-الأشرف خشقدم	*عمارة قناة السبيل	المرجع نفسه، ص97
14-الأشرف قايتباي	صناعة الأبواب النحاسية للمسجد الأقصى وعمارة المسجد الأقصى قناة السبيل والمدرسة الأشرفية	مجبر الدين الحنبلي، الأنس الجليل ، ج2 ، ص619
15-قانسوه الغوري	*جددت في عهده عمارة المسجد الأقصى والفصوص أصلحت ، وتم بياض الجدران ودهان الأبواب.	علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي، ص31

في ضوء المعطيات التاريخية حول السياسة المملوكية تجاه بيت المقدس، كشفت الدراسة عمق انتماء المماليك بتولي مسؤولية الدفاع عن بيت المقدس لأهميتها الدينية والتاريخية ، والانتصار على المغول الأيلخانيين في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م ، وكان هذا نهاية لطموحات الصليبيين ممن تحالفوا مع المغول للوصول إلى بيت المقدس .

كما أفشلت السياسة المملوكية أية تحالفات مغولية أوروبية ، وانتهجت سياسة المواجهة والتصدي لأية محاولة للوصول إلى بيت المقدس .

وشكل قيام دولة المماليك ضرورة ليس لحماية البلاد من الأخطار الخارجية فحسب بل لرعاية بيت المقدس من الجوانب الأخرى الدينية ، والاجتماعية ، والخيرية بهدف توفير الحياة الطيبة وتنشيط الحياة في المدينة ، ورغم الاضطراب السياسي في الدولة المملوكية في بعض الفترات كمقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، وقانسوه الغوري فقد عكس المماليك صورة واضحة عن هذا الاهتمام ولم يغفلوا أمرها .

لم تنعم بيت المقدس بالاستقرار والهدوء عبر مراحل التاريخ المختلفة ، وهي ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض ، ولكنها رمز دار من حوله الصراع على مدى أجيال عدة في تاريخ المنطقة العربية ، وهي اليوم رمز صراع جديد قسّم بين القوى العربية ، والقوى القادمة من خارج المنطقة ، وهي في

ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب ، والقوى الصليبية التي وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كياناً دخيلاً ، فما أشبه اليوم بالبارحة .

الهوامش

(¹) محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، د.ط، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ج1 ، ص150 ؛ وفاء محمد علي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، ص39

(²) وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ط1، دار الفكر، ج2 ، ص878 ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ط1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ج2 ، ص679

(³) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2 ، ص18 ؛ علي السيد علي ، ملاحم الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الصليبي ، المستقبل العربي ، عدد 102 ، ص39 ، 60

(⁴) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2 ، ص18

(⁵) محمد بن محمد العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، تحقيق: فالح حسين ، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان ، ج5 ، ص41 ؛ علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت 1966 م، ج10 ، ص58 ؛ محمد بن عمر الأيوبي بن شاهنشاه الأيوبي ، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: سامي الدهان، د.ط، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ص112 ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2 ، ص124

(⁶) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2 ، ص49

(⁷) Setton, K.M, A history of the crusades, Philadelphia, Pennsylvania University press, vol.1, p07

- (⁸) الصوري ، الحروب ، ج2 ، ص1016 ، عمر كمال توفيق ، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، د.ط. ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، ص157 ؛ setton , vol,1, p580
- (⁹) حنان خريسات ، السياسة الأيوبية تجاه الصليبيين ، رسالة ماجستير غير منشورة 2007م ، ص9
- (¹⁰) يوسف بن رافع بن شداد ، النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق : جمال الدين الشيال، ط1، الدار المصرية للتأليف والنشر، مصر، ص123-131؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2، ص118
- (¹¹) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2 ، ص496-404 ؛ احمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، المطبعة الأميرية ، ج7 ، ص23
- (¹²) ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص198 ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص168
- (¹³) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص235
- (¹⁴) عمر بن احمد ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان، د.ط.، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ، ج3 ، ص136 ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج2 ، ص13
- (¹⁵) حنان خريسات ، السياسة الأيوبية ، ص15
- (¹⁶) مؤلف مجهول ، تنمة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأ إلى روثلان ، ترجمة أسامة زكي، ط2، دار المصطفى للطباعة ، طنطا ، ص49 ؛ ستيفن رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني، د.ط.، دار الثقافة ، بيروت، مج3، ق1، ص195؛ ارنست باركر ، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، د.ط.، دار النهضة العربية، بيروت ، ص96
- (¹⁷) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج5، ص341؛ تقي الدين احمد بن علي المقرئ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، صححه محمد مصطفى زيادة ، د.ط.، مصر،

ج1، ق2، ص316، Burry, The Cambridge Medieval History, p.315 ; Ayyubids, vol.1, p.804

(¹⁸) هو ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحى احد كبار ممالك السلطان الصالح نجم الدين انظر ترجمته لدى : عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى المعروف بأبى شامة ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، صححه محمد بن زاهد الكوثري، راجعه عزت العطار الحسيني، ط2، دار الجليل، بيروت ، ص174

(¹⁹) المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ق2 ، ص337

(²⁰) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج8 ، ص36

(²¹) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج8 ، ص37

(²²) ركن الدين بيبرس المنصوري ، التحفة المملوكية في الدولة التركية ، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1987م ، ص26 ؛ مختار الأخبار، تحقيق: عبد الحميد صالح، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993م ، ص9 ؛ محمد محمود العناقرة ، القدس في العصر المملوكي ، مجلة أفكار ، عدد 249، ص141

(²³) علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي ، د.ط ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة 2001م ، ص24

(²⁴) المرجع نفسه ، ص24

(²⁵) المرجع نفسه ، ص24

(²⁶) بيبرس المنصوري ، التحفة ، ص50

(²⁷) محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، القاهرة 1999م ، ص98

(²⁸) المرجع نفسه ، ص126

(²⁹) المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ق3 ، ص553

(³⁰) بدر الدين محمود العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، د.ط، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة ، ج2 ، ص279

- (³¹) محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 235
- (³²) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج 1 ، ص 282-283
- (³³) محمد محمود عناقرة ، القدس في العصر المملوكي ، مجلة أفكار ، عدد 249 ، ص 142
- (³⁴) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 286
- (³⁵) محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك ، ص 285
- (³⁶) رنسيمان ، تاريخ ، ج 3 ، ص 743
- (³⁷) أبو شامة ، الذيل ، ص 207 ؛ إسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق: أحمد ملحم ، ط 2، مكتبة المعارف، بيروت ، ج 13 ، ص 220 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج 1 ، ص 244
- (³⁸) اجبر هولكو على العودة إلى العراق بعد وصول أخبار وفاة مانجو خان ، والخلافات بين إخوته أريق بوقا وقويلاي على تولي العرش المغولي ، إضافة إلى الخلافات بين هولكو باعتباره حاكما فعليا للدولة الأيلخانية وبين بركة خان حاكم القبيلة الذهبية على اتخاذ قرار العودة إلى بلاده. ويقول بيبرس المنصوري : " أن موته أوجب عود هولكو عن ديار بلاد الشام " ، عن ذلك انظر : بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 56 ، 55
- (³⁹) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 50 ؛ وائل عبد الحق الضمور ، الأمير الظاهر بيبرس المنصوري ، ط 1، مطبعة السفير ، عمان 2009م ، ص 104
- (⁴⁰) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص 43 ؛ إبراهيم بن محمد بن ايدمر بن دقماق ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين ، ط 1، عالم الكتب، بيروت ، ص 61 ؛ ابن إياس، محمد بن احمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، ط 2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 1982 ، ج 1 ، ق 1 ، ص 305
- (⁴¹) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص 43 ؛ زبدة الفكرة ، ص 50

- (⁴²) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 50 ؛ احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهایة الأرب في فنون الأدب ، تحقيق: محمد محمد أمين، د. ط، مركز تحقيق التراث، ج 29 ، ص 302 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج 1 ، ص 237
- (⁴³) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 50
- (⁴⁴) ابن دقماق ، الجواهر الثمين، ج 1، ص 61
- (⁴⁵) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج 8، ص 64
- (⁴⁶) أبو شامة ، الذيل ، ص 207 ؛ عبد الله بن اسعد اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط 1، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997م ، ج 4 ، ص 113 ابن كثير ، البداية ، ج 13 ، ص 220 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج 1 ، ص 244؛ عبد الحي احمد بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، د. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ج 5 ، ص 291
- (⁴⁷) محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية ، د. ط، مطبعة القضاء ، النجف 1970م، ص 374 ؛ عباس إقبال ، تاريخ المغول منذ حملة حنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبد الوهاب علوب، د. ط، الجمع الثقافي، أبو ظبي 2000م ، ص 212 ؛ فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ، د. ط، دار النهضة العربية ، بيروت ، ج 1 ، ص 317
- (⁴⁸) أبو شامة ، الذيل ، ص 399 ؛ مجهول ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة المنسوب خطأ إلى ابن الفوطي ، علق عليه مصطفى جواد، د. ط، مطبعة الفرات، بغداد ، ص 339
- (⁴⁹) أبو شامة ، الذيل ، ص 211
- (⁵⁰) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 88 ؛ مختار الأخبار ، ص 27
- (⁵¹) المصدر نفسه، ص 29
- (⁵²) أبو شامة ، الذيل ، ص 233 ؛ القزاز ، الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية ، ص 399

(⁵³) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص88 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج1 ، ص388

(⁵⁴) هو فارس الدين أقطاي بن عبد الله النجمي الصالحي ، توفي سنة 672هـ/1273م . انظر :يوسف ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، علق عليه محمد حسين شمس الدين ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ، ج7 ، ص85

(⁵⁵) Boyle,John Andrew , The Mongol World Empire 1206-1370,preface byowen Lattimore,London1977 , p . 554

(⁵⁶) Ibid , p . 556

(⁵⁷) عبد علي ياسين ، العراق في عهد المغول الأيلخانيين ، جامعة الأزهر ، 1978، ص497 ؛ مصطفى طه ، مغول إيران بين المسيحية والإسلام، د.ط،دار الفكر العربي ، ص7 ؛ Percy Sykes , A Ahistory of Persia ,third edition,London1963. p 99

(⁵⁸) Percy Sykes , A history of Persia (, vol . 11 . p . 556

(⁵⁹) Ibid , vol . 11 . p 99

(⁶⁰) عادل إسماعيل هلال ، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، ط1، عين للدراسات والبحوث ، مصر 1997 ، ص108

(⁶¹) Percy Sykes , A history of Persia , vol . 11 . p 99

(⁶²) هلال ، ص281

(⁶³) John Andrew , the Mongol World Empire , p . 556

(⁶⁴) هلال ، العلاقات ، ص108

- (⁶⁵) رشيد الدين الحمذاني ، جامع التواريخ (خلفاء جنكيز خان) ، ترجمة فؤاد الصياد، مراجعة يحيى الخشاب، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1983 ، ج 2 ، ص12
- (⁶⁶) ابن كثير ، البداية ، ج13 ، ص254 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج2 ، ص40
- (⁶⁷) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة ، ص117
- (⁶⁸) العيني ، عقد الجمان ، ج2، ص40
- (⁶⁹) ابن كثير ، البداية ، ج13 ، ص254 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج2 ، ص43
- (⁷⁰) بيبرس المنصوري ، مختار الأخبار، ص75 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج2 ، ص101
- (⁷¹) الكتبي، عيون التواريخ ، تحقيق : فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ، وزارة الثقافة والإعلام ، العراق 1984م ج21 ، ص9
- (⁷²) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص338 ؛ زبدة الفكرة ، ص132 ؛ ص337 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج2 ، ص58
- (⁷³) ابن كثير ، البداية ، ج13 ، ص263 ؛ الكتبي ، عيون التواريخ ، ج21 ، ص9 ؛ عبد علي ياسين ، العراق ، ص308
- (⁷⁴) حسين محمد عطية ، سفارات الأرمن إلى المغول وأثرها على العلاقات الأوروبية المغولية ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد1989، 36 ، ص224
- (⁷⁵) رنسيما ، تاريخ ، ج3 ، ق2 ، ص593
- (⁷⁶) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص260 ، 262 ، 306 ؛ القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، ص436
- (⁷⁷) محمد محمود العناقرة ، القدس في العصر المملوكي ، مجلة أفكار ، عدد249، ص142

(⁷⁸) بيبرس المنصوري ، التحفة ، ص176 ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج4 ، ص320

(⁷⁹) المقرئزي ، السلوك ، ج1 ، ق3 ، ص954 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج8 ، ص134

(⁸⁰) القزاز ، العراق في عهد السيطرة المغولية ، ص438 نقلا عن Howroth, The History of Mongols.